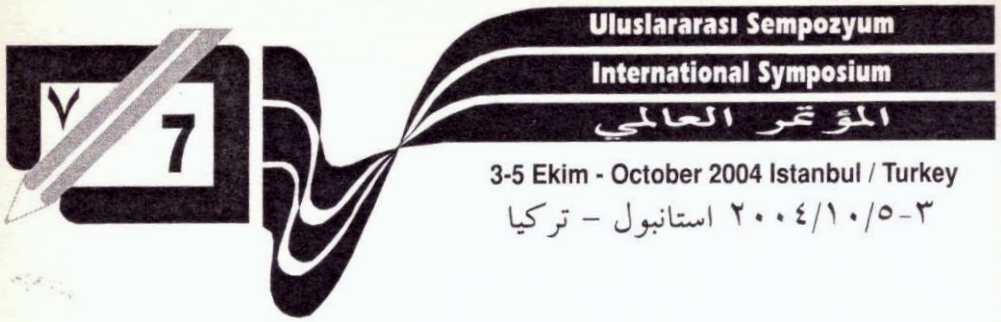

المؤتـــمر العالمي الســـابع
لبديع الزمان سعيد النورسي

ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م
Ekim 2004
الترقيم الدولى
ISBN: 975-269-043-2
شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

دور الأخلاق في تغيير الواقع المعاصر
من خلال فكر الإمام النورسي

د. عبد العظيم أحمد عبد العظيم
جامعة الإسكندرية
مصر

توطئة

إن الله يبعث على رأس كل قرن لهذه الأمة من يجدد لها دينها؛ وقد شهد القاصي والداني للإمام النورسي ـــ رحمة الله ـــ بالإخلاص لدين الله وربطه بين التراث والحياة المعاصرة، ومما لفت انتباهه في الحياة المعاصرة فساد أخلاقها، فشرع يفند أسباب هذا الفساد وكيفية وضع العلاج الناجع له من خلال تراث الإسلام. ومن ثم فإن الأخلاق في كليات رسائل النور هي جوهر العمل الديني عند الإمام. ومن المقاصد الرئيسة في كل مؤلفاته ولذلك تعددت أوصافها ونعـــوتها، وهي نعوت لم تبتعد عن المفهوم الذي قصده السلف، حيث أنهم كانوا يفصّلون الحديث عنها في أبواب (المكارم)، أو(الفضائل)، أو (الآداب)، وقد آثر الإمام النورسي مصطلح (الكليات الخُلُقية) لأنه جامع ومستغرق للقضايا الخلقية، ومراد الإمام من الحديث عن الأخلاق إلى بعث المسلمين بعثاً قرآنياً يستوعب حضارة العصر، لكنه لا يحمل أوزارها وأوساخها. ومن هنا فإن هذا البحث يهدف إلى دراسة الأخلاق عند الإمام النورسي من خلال بحوثه ومصنفاته، وسلوكه وأفعاله. وذلك في أربعة مطالب؛ أولها تعريف الأخلاق، والثاني مصادر الأخلاق عند الإمام النورسي والثالث عن أسباب انهيار الأخلاق ومظاهره وآثاره على المجتمعات، والمبحث الرابع عن المنهج النوري في الإصلاح.

أولا.. تعريف الأخلاق:

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: الخَلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد، لكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص [الخُلُقُ] بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. وقال صاحب مختار الصحاح: والخُلُقُ بسكون اللام وضمها: السجية. وفلان يَتَخَلَّقُ بغير خلقه: أي يتكلفه، فالأخلاق في اللغة تعنى التصرفات الإنسانية الصادرة عن أوصاف النفس وسجاياها الباطنة. وفي الحديث: "ليس شيء في الميزان أَثْقلَ من حُسن الخُلُق"[1]، ونظرية الأخلاق مسطورة في كل كتب الفلاسفة والحكماء، ولكنها ليست كنظرية الإسلام، كما أن حديث الحكماء عنها ليس كحديث الإمام.

أ ــ الأخلاق في المدارس الفلسفية:

وتتسم المذاهب الأخلاقية غير الإسلامية بالجزئية، إذ يأخذ بعضها بمبدأ الأخلاق الطبيعية، ويقتصر بعضها الآخر على مبدأ الأخلاق العلمية، بينما يدعوا آخرون إلى الأخلاق الواقعية أو الأخلاق العلمانية. وكل نظرية أخلاقية اعتمدت مفهوما واحدا. فنظرية أريستيب وأبيقور تقوم على اللذة، ونظرية سقراط وأفلاطون تقوم على السعادة، ونظرية نيتشه أساسها القوة، ونظرية إيمانويل كانط تقوم على الواجب، ونظرية بنتام وجون استيوارت مل تقوم على المنفعة،

وقد تحدث أفلاطون عن (المدينة الفاضلة)؛ ورغم مثاليته التي يصبو إليها إلا أنه لجأ إلى ما يسمى (الكذب الضروري). حيث أنه لم يجد حرجا في لجوء الحكام والفلاسفة أحيانا إلى الكذب وخداع المواطنين من الطبقة الدنيئة، بينما لا يجوز لهؤلاء المواطنين أن يخدعوا الحكام. ويكون ذلك الكذب ضروري لأن المعدن الذي خلقت منه كل طبقة مختلف عن المعدن الذي خلقت منه الأخرى[2]! وهكذا فغاية الأخلاق الأفلاطونية تمجيد (الأنا) للحكام والفلاسفة والنبلاء. وبعد أفلاطون تطورت الأخلاق إلى مذهب نفعي في صورة مادية محضة كما هو الحال في الليبيرالية أو الماركسية، كما أثبته مؤرخ الفلسفة الغربية الفيلسوف الإنجليزي (برتراند راسل)[3]،

وقد حصر فلاسفة الإسلام وحكماؤه أصول مكارم الأخلاق في (الحكمة والشجاعة والعفة والعدل و الصبر)، وهي تتولد ــ حسب تصورهم ــ من ثلاثة قوى: (القوى

الفكرية، والقوى الغضبية والقوى الشهوية)[4] وحدد الحافظ ابن حجر الكليات الخلقية في خمسة أصول استنبطها من حديث خديجة للنبي ρحين قالت: (كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق"[5]

ب ــ التعريف النوري للأخلاق:

وفي اصطلاح بديع الزمان النورسي؛ فالأخلاق هي: [نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة؛ لاكتساب معناها الكوني]. ومن ثم فإن المنظومة الأخلاقية التي وضع أسسها النورسي، تستوحي الأخلاق القرآنية والأخلاق المحمدية جميعها، ولذلك فهي تتسم بالعموم والكلية والشمول، فقد شملت علاقة الإنسان بخالقه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقة الإنسان بكل عناصر الكون ومكوناته.. ويرى الإمام أن [الأخلاق عزة لأن من أراد العبودية الخالصة لرب العالمين لا ينبغي له أن يذلّ نفســـه فيكون عبداً للعبيد. وحيث أن كل إنسان راعٍ في مُلكه وعالَمه فهو مأمور بالتخلق بأخلاق النـــبي ρ وإحياء سنته الشريفة][6] كما أن [الإفراط والتفريط في الأخلاق يفسدان الاستعدادات والمواهب. وهذا الإفساد ينتج العبثية، وهذه العبثية مناقضة للحكمة الإلهية المهيمنة برعاية المصالح والحكم حتى على أصغر شئ في العالم][7].

إن كثيرا من الأحكام الدينية، والتشريعات القرآنية، التي دأب بعض الكتاب على تصنيفها خارج مفهوم الأخلاق، جعلها الإمام من صميم الأخلاق، وأصولها. ومن هذا الفهم الشامل للأخلاق تحدث الإمام عن الصدق والشورى والعدل والتعاون والأخوة والأمل والتواضع والاجتهاد والوفاء والعفة والمحبة والشكر وغيرها، بل إنه خصص لبعضها رسائل مستقلة، كما نبه على خطورة الأخلاق الذميمة مثل الكذب والرياء والنفاق والظلم والتفرق والتعصب والتكبر والأنانية واليأس والاستبداد والتكاسل والعداوة والشر والخيانة. ويستدل على صدق ما وصل إليه بحضارة الإسلام فيقول: [أما المدنية التي بنيت على أساس التشريع الإسلامي والأخلاق المحمدية الرفيعة، فإنها مبنية على الحق والفضيلة والرابطة الدينية والتعاون والهدى، وهذا ما يؤدي إلى العدالة والتوازن

والمودة والأخوة والمسالمة والاتحاد وترقي الإنسان[8]] وهذا هو سر التزام الناس بالقانون التشريعي الإسلامي حيث عمقه الخلقي الرفيع.

ويرى الإمام أن الأخلاق نسبية في درجة تطبيقها من موقف لآخر ومن شخص لآخر، إذ يقول:"إن الفضائل والأخلاق، وكذا الحسن والخير، أغلبها أمور نسبية، تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر، وتتباين كلما نـــزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدلت مكانا بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة، ومن الشخص إلى الأمة. فمثلا: الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا: إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذللا. ومثلا إن جدية ولي الأمر في مقامه وقار، بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر، ولينه دليل على التواضع[9]"

وقد عنى الإمام في نظريته الأخلاقية بالصدق واعتبره أساس الإسلام، والرابط لكل الكمالات.. وهو الحياة للأخلاق العالية [وهو الذي يُسّرع بنوع البشر في طريق الترقي – كالبرق – إلى كعبة الكمالات.. وهو الذي يصيّر أخمد الناس وأفقره أعزّ من السلاطين.. وبه تفوّق أصحابُ النبيّ عليه الصلاة والسلام على جميع الناس.. وبه ارتفع "سَيّدنا محمد الهاشميّ" عليه الصلاة والسلام إلى أعلى عليين مراتب البشر[10]] و[الصدق هو أس أساس الإسلام، أساس عظيم وجوهر ساطع، وواسطة العِقد في سجاياه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية. فعلينا إذا أن نحيي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية[11]] وإذا كان الصدق أس الإسلام فإن من لا يتبع الإسلام يختل بنيان الصدق عنده؛ ومن ثم يقول الإمام: [إن الكفر بجميع أنواعه كذب. والإيمان إنما هو صدق[12]]. ويقول أيضا: [أما الكذب فلا يسمح به قطعا[13]] [إن الأخلاق العالية إنما تتصل بأرض الحقيقة بـــ "الجدية" وان إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هي بـــ"الصدق". ومتى ما انقطعت عرى الصدق والجدية منها صارت كهشيم تذروه الرياح.[14]]

[ولما كان الصدق إيمانا والكذب كفرا، أي كانا متضادين ومتناقضين تباعدا وتدافعا: "وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب بُعد ما بين المشرق والمغرب. ولا ينبغي أن يختلط الصدق والكذب اختلاط النور والنار، إن الصدق والكذب بعيدان أحدهما عن الآخر بعد الكفر عن الإيمان، ولكن لما ابتعد الناس عن الفطرة والأخلاق الحميدة، اختلط الصدق والكذب، وأعطت الدعايات السياسية رواجا كبيرا للكذب وأفسحت له المجال فبرز في الميدان، ووجدنا من ينظر للكذب ويعتبره ظاهرة لغوية ونصية، أي ظاهرة طبيعية[15]]

ثانيا ــ مصادر الأخلاق عند النورسي:

يقول الإمام: "إن إصابة الأمة في قلبها إنما هو من ضعف الدين، ولن تنعم بالصحة إلا بتقوية الدين، أما مسلكنا فهو التخلق بالأخلاق المحمدية ρ وإحياء السنة النبوية، ومرشدنا في الحياة: الشريعة الغراء، وإذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان، فإن دور الدين يتمثل في تثبيت هذه الفطرة وتكميلها وتهذيبها [16]". من خلال هذا النص يتبين لنا أن مصادر الأخلاق عند الإمام تتمثل فى:

أ– الفطرة:

الفطرة هي طبيعة الكائن التي تصاحبه منذ نشأته، وهي التي لم تستمد من التجربة، قال تعالى:"فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" ويذهب الإمام إلى أن الأخلاق فطرية في الإنسان أي أنها مركوزة في بنيته وخلقته، وأنها مقوم أساسي من مقومات ذاتيته وهويته.

إن الإنسان مفطور على التدين والخير والصدق والسعي نحو الكمال، وكل الأخلاق الحميدة، فالأخلاق الحميدة هي القاعدة، والأخلاق الرديئة المذمومة هي الاستثناء، والأخلاق الأولى هي غاية في حد ذاتها وهي السائدة الغالبة في نظام الكون ونظام الكائنات، أما الأخلاق الفاسدة، وإن كانت مركوزة هي الأخرى في الفطرة، فهي جزئية وثانوية، ووجودها إنما كان بقصد التعرف على تجليات الحق والخير والجمال والكمال، وقديما قيل: "بضدها تتبين الأشياء". والدليل على فطرية الأخلاق أن كلمتي

الخَلق والخُلُق في اللغة العربية مشتقتان من مادة لغوية واحدة، أي أنهما تنتميان إلى نفس الجذر اللغوي "خ.ل.ق".

ب ــ القرآن:

إن تصور الإمام للمعنى المستنبط من القرآن قائم على أن القرآن ــ كل القرآن ــ إنما جاء لبناء الأخلاق، وذلك هو منطوق حديث عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي ρ فقالت في حديثها الذي يرويه مسلم في صحيحه: (كان خلقه القرآن) ومن ثم فإن رسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعا قائما على أساس الأخلاق، بمعنى كلي. فكل التصرفات البشرية في العلاقات النفسية، والاجتماعية، والوجودية، مع سائر الكائنات؛ إنما هي أخلاق. لذلك فإن تصور الأخلاق على أنها (فضيلة) أو (نافلة) هو مفهوم جزئي. والاقتصار عليه يؤدي إلى تحريف الدلالة القرآنية، ذات البعد الشمولي العميق لمصطلح (أخلاق). فالقرآن نظام رباني، أنــزله الله لتنظيم حياة الإنسان. ولذلك بيَّن الإمام أن أخلاق القرآن قد وسعت كل ما جاءت به الكتب السماوية السابقة وزيادة. قال رحمه الله: (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً، وقد لا تجد دينا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدقّ شؤون الحياة[17])

ج ــ الرسول:

إن القارئ المدقق لكليات النور يرى من خلالها حبا خالصا للنبي وسنته؛ وأن الرسائل قد كُتبت بمداد الحب النبوي؛ فهي سهلة الوصول إلى شغاف القلوب. ومن ثم يقول الإمام في ثناياها: "إن آثار محمد ρ وسيرته المباركة وتاريخ حياته تشهد أنه قد اجتمعت فيه الخصال العالية كافة. ومن شأن امتزاج كثرة من تلك الأخلاق توليد عزة النفس، التي تولد شرفاً ووقاراً يترفعان عن سفساف الأمور، كترفع الملائكة وتنــزههم عن الاختلاط بالشياطين، فالأخلاق السامية كذلك لا تسمح أصلا بتداخل الحيلة والكذب بينها، بل تتنــزه وتتبرأ وتترفع عنها، بحكمة التضاد فيما بينها[18]" ومن ثم فإن "الزمان

الماضي والزمان الحاضر – أي عصر السعادة النبوية – والمستقبل يتضمنان براهين نيّرة على النبوة، ويرددان بلسان واحد برهان ذاته ρ بأنه معدن الأخلاق العالية وداعي الصدق ودلال النبوة[19]". وكيف لا وهو القائل: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق[20]) ولكن محبة المسلمين لنبيهم لا تكتمل إلا باتباع سنته، إذ أن مقياس اتباع السنة رهين بدرجة التخلق بأخلاق رسول الله ρ .

ثالثا ــ فساد الأخلاق:

يعيب الإمام على من يعمدون إلى الفصل بين الأخلاق والحضارة؛ فيقول: [لما كانت مدنية أوربا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت هيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤشر على قرب انهيارها وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدنية آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب[21]] أما [الأعمال اللاأخلاقية الدنيئة والخسيسة التي تحملها حضارة العصر لا قيمة لها فهذا انتصار وقتي لا قيمة له ولا أهمية له أمام بشرى قوله تعالى "والعاقبة للمتقين"[22]]

أ ــ أسباب انهيار الأخلاق:

ويُرجع الإمام فساد الأخلاق في هذا الزمان وغيره من الأزمنة لعدة أسباب منها ما يلي:

1 ــ الفقر والجهل:

يوضح الإمام العلاقة بين الفقر وسوء الأخلاق فيقول: "لأن السعي والعمل لا يكفيان لمواجهة المصاريف المتزايدة؛ انساق الإنسان إلى مزاولة الخداع والحيلة وأكل الحرام. وهكذا فسد أساس الأخلاق. وبينما تعطي هذه المدنية للجماعة والنوع ثروة وغنى وبهرجة إذا بها تجعل الفرد فقيراً محتاجاً، فاسد الأخلاق."[23] ويرى الإمام أن هذا السبب من السهل تداركه والقضاء عيه وذلك باتباع منهج الاقتصاد الإسلامي، ففي "وجوب الزكاة" و"حرمة الربا" حكمة عظيمة، ومصلحة عالية، ورحمة واسعة؛ إذ لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظراً تاريخياً وتأملت في مساوي جمعية البشر لرأيت أسّ أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين

فقط: إحداهما: "انْ شَبِعْتُ فلا عليَّ اَن يموتَ غيري من الجُوعِ". والثـــانيـــــــة: "اِكْتَسِبْ أَنْتَ لآكُلَ أَنَا. واتْعَبْ أنتَ لأَستريحَ أَنَا".

أما عن العلاقة بين الجهل وسوء الأخلاق فيقول: "إن أعداءنا ليسوا هم الأجانب بل إن عدونا هو الجهل وما تولد منه من منع إعلاء كلمة الله وما نتج عنه من مخالفة الشريعة. ثم البؤس وثمرته سوء الأخلاق وسوء التصرفات، والخلاف وما يتولد عنه من الحقد والنفاق[24]"

وهو في هذه وتلك يحذر من آفة التقليد فيقول: "إن أحوالي وأخلاقي مخالفة للناس، كما هو الحال في ملابسي. فاتخذوا الأمر الواقع والحق محل النظر وموضع الاعتبار. ولا تتخذوا ما روّجه الزمان أو العادات من أخلاق سيئة بتقليد الناس بعضهم بعضاً مقياساً لوزن الأمور[25]". ويحذر الإمام أشد التحذير من تقليد المستعمرين وأعداء الملة فيقول: إن (الإنكليز) كالشيطان الرجيم يثير أحاسيس الإنسان الخبيثة ويشجع الأخلاق الرذيلة في حين يطفئ جذوة المشاعر النبيلة[26]".

2 ــ الإعلام:

لا ينكر الإمام فضل الإعلام في نشر رسالة الإسلام، بل إنه يعد من أخطر وسائل الدعوة، ولكن الإمام يحذر من الإعلام الذي ليس له غاية ولا هدف بل هو إعلام عبثي فيقول: "لقد دأبت الصحف على زعزعة الأخلاق الإسلامية، حتى اهلكوا الأفكار العامة السائدة. فتصديت لهم بمقالات نشرتها في الجرائد"[27]، فبالإعلام غير الرشيد انفتحت الشعوب على ثقافات غيرها ففُتح الباب أمام الثقافة الغربية الرخيصة "التي تستوجب الرذائل في الأخلاق والقضاء على الفضيلة"[28] " ونشطت الصحافة في نشر الابتذال في الأخلاق والاستهزاء بالدين، فانتشرت كتب الإلحاد وحلت محل كلمات (الله، الرب، الخالق، الإسلام) كلمات (الطبيعة، التطور، القومية التركية..الخ)"[29]

3 ــ المدارس الفلسفية الفاسدة:

ولا ينكر الإمام الفلسفة التي تدعو إلى الحكمة ومعرفة الحق والخير والجمال، ولكنه ينكر الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد إذ يقول: "فالفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية وتمهد للرقي الصناعي، فهي في

وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها ولا يمكنها ذلك، وأما الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للطبيعة، فإنها تنتج السفاهة واللهو والغفلة والضلالة وتعارض الحقائق القرآنية[30]".

ب ــ مظاهر انهيار الأخلاق:

إن التقدم المادي والازدهار المعاشي، من شأنهما أن يزجّا بالإنسان في حالة من الترف والاستكبار والاعتداد بالقوة والتنكر لموازين الحق.. وهذا هو مصداق قول الله عز وجل: ''إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى'' ومن ثم فإن المجتمع الإنساني مدعوّ بل مضطر إلى أن يجدد نفسه دائماً، كي لا يقع في آفة التراجع إلى الاستبداد والطغيان من جراء تألق الحياة المادية وازدهار أسباب المعيشة، وبخاصة أن حضارة اليوم تعتمد على تسييد القوة بمفهومها الشامل، وتسعى لصياغة منظومة قيمية شمولية تقوم على مبادئ وأخلاقيات الليبرالية الجديدة التي تبشر بأبدية الرأسمالية الأمريكية الأوروبية، وانغلاق جميع السبل المناهضة لها.

ومن مخاطر تلك الحضارة تغير النسق القيمي من جهة؛ وفقد الهوية من جهة أخرى، فقد عمل الأمريكان واليهود على تفكيك البنيات الاجتماعية والبنيات الأخلاقية للشعوب فضلا عن ذلك نصبوا أنفسهم مدافعين عن حقوق الإنسان بتشجيع الأقليات داخل الشعوب والدفاع عنها لتفكيك البنيات الاجتماعية للأمم والهدف هو القضاء على الخصوصيات الشعوبية في العالم والوصول إلى إنسان لا انتماء له، لا مرجعية له؛ وإنما إنسان قابل لأن يكون مستهلكا. وقد نجحوا في تجنيد من يرونه أهلا لتنفيذ مخططاتهم، وممن [حملوا لواءهم: تكين آلب (يهودي) و ضياء كوك آلب الذي تتلمذ على العالم الاجتماعي الاسرائيلي (دور كيم) وإن لم يحضر دروسه في فرنسا، و أحمد آغاييف ويوسف أقجورة، ممن هيأتهم المخابرات الروسية و أرسلوا إلى تركيا بعد عزل السلطان عبد الحميد.[31]].

وقد أكد الإمام أن [الأعمال اللاأخلاقية الدنيئة والخسيسة التي تحملها حضارة العصر لا قيمة لها؛ فهذا انتصار وقتي لا قيمة له ولا أهمية له أمام بشرى قوله تعالى "والعاقبة للمتقين"[32]] وقد نوه الإمام بأساس الحضارة اللاديني، وبأنها عجنت الثورة على الدين،

فهى في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق، وبالتالي فهي عاكفة على عبادة آلهة المادة، وتؤسس في كل يوم لها معبدا جديدا. وهى رغم كل المفاسد لا تريد أن تحيد عن نهجها، مع كل ما عانته من حروب عالمية وأمراض اجتماعية وأخلاقية مستعصية!!.

وينعى الإمام تلك الحضارة في هذا الشق اللاديني اللاأخلاقي – قائلا لها وللمفتونين بها: [يا أوروبا الثانية (!!) اعلمي جيدا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهة ثم تدّعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شُلّت يداك، وبئستْ الهديةُ هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون[33]].

ومن مظاهر انهيار الأخلاق "الكذب" [وما الكذب إلا افتراء على القدرة الإلهية، وضد للحكمة الربانية.. وهو الذي خرّب الأخلاق العالية.. وهو الذي صيّر التشبثات العظيمة كالشبحات المنتنة.. وبه انتشر السمّ في الإسلام.. وبه اختلت أحوال نوع البشر.. وهو الذي قيّد العالم الإنساني عن كمالاته، وأوقفه عن ترقياته.. وبه وقع أمثال "مسيلمة الكذاب" في أسفل سافلي الخسة.. وهو الحمل الثقيل على ظهر الإنسان فيعوقه عن مقصوده.. وهو الأب للرياء والأم للتصنع.. فلهذه الأسباب اُختص بالتلعين والتهديد والنعي النازل من فوق العرش[34]]..

ج ــ آثار فساد الأخلاق:

إن المدنية الغربية بنيت على أساس الأخلاق الذميمة، ولذا فإنها لا تكفل سعادة البشرية. إنها بنيت على خمسة مبادئ سلبية:

ــ مبنية على القوة: وهذا يؤدي إلى الاعتداء والظلم.

ــ هدفها وقصدها المنفعة: وهذا من شأنه التدافع والتزاحم.

– دستورها في الحياة هو الجدل: وهذا يؤدي إلى التنازع والخصام.

– رابطتها بين الكتل هي العنصرية والقومية السلبية: وهذا يؤدي إلى تصادم رهيب.

ــ خدمتها الجذابة هي تطمين وتشجيع الهوى والهوس: وهذا يمسخ الإنسان روحيا.

إن من أخطر أخلاق الحضارة الغربية "الحرص والأنانية"، ومن ثم يحذر الإمام من خطرها إذا ما تأصّلت وكان لها تأثيراتها فيقول: [الحرص أضرّ على الحياة الإنسانية وأدهى] و[الحرص بذاته سبب الخيبة والخذلان، وداء وبيل ومهانة وذلة، وهو الذي يجلب الحرمان والدناءة. والحرص يظهر تأثيرُه السيئ بدءً من أوسع دائرة في عالم الأحياء، وانتهاء إلى أصغر فرد فيه[35]]. و[الذي تمكّن فيه الحرصُ والأنانيةُ، يصبح إنسانا يريدُ القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدمير العالم والجنس البشري إن استطاع[36]] ونتج عن هذا أن حضارة اليوم [تتسم بالدمار الأخلاقي والروحي وبإثارة هوى النفس الأمارة وبإطلاق الشهوات من عقالها[37]] [وبهذا الأسلوب أحاطت الحضارة الغربية المجتمعات البشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يد صانعيها وحماتها ثروة الناس؛ فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق[38]]

ولا يلقى الإمام باللائمة على صناع الحضارة الغربية فقط بل إنه يتهم المسلمين كذلك في تنكبهم طريق الأخلاق وأن ابتعادهم عن طريق الجادة والإيمان لا يقل خطرا عن مهاوى الحضارة المزعومة؛ إذ يقول: [والمانع السادس والسابع لعدم سيادة المسلمين الآن تفشي روح الاستبداد فينا. وانتشار الأخلاق الذميمة النابعة من مجافاة الشريعة ومخالفتها[39]].

رابعا ــ النموذج النوري للإصلاح:

قبل أن يضع الإمام منهجا للإصلاح عمد إلى إصلاح نفسه أولا، فهذبها، على نهج الأخلاق المحمدية متجاوزا برازخ النفس والهوى، فبرز في هذا العصر مثالا فريدا مجسما لمكارم الأخلاق. فأمضى حياته حاملا همة عالية واطمئنانا راسخا وعفة تامة مع نكران ذات صادق تتحير منه العقول. كل ذلك بما وهبه المولى الكريم من صفاء قلب وتوكل كامل وقناعة تامة، فنرى البساطة الكاملة في عيشه وملبسه بل في كل حاله وطوره. حتى لا تراه يحمل ذرة من محبة الدنيا وميل إليها.

ويروى لنا الإمام لقطات من حياته تعبر عن حُسن منهجه وصدقه في تطبيقه إذ يقول [وقد كنا في "قوصتورما"، في روسيا، مع تسعين من ضباطنا الأسرى في ردهة واحدة، وكنت أُلقي عليهم أحياناً الدرس. وذات يوم حضـــر القائد الروسي وشاهد الموقف

وقال: إن هذا الكردي قائد المتطوعين قد ذبح كثيراً من جنودنا، ويأتي الآن ويلقى دروساً سياسية هنا، لا يمكن هذا، امنعه قطعاً. ولكن بعد يومين قال: يبدو أن دروسكم غير سياسية، بل دينية وأخلاقية. استمر عليها؛ فسمح بإلقاء الدرس[40] [أما الشباب الذين كانوا يتناوبون عليه أحيانا فكان يوصيهم بقراءة رسائل النور والحذر من مهالك ضياع الأخلاق في هدا العصر ولزوم أداء الصلوات. وبفضل الله فقد صحا الكثيرون من رقدتهم[41]]

[وكان الفدائيون الأرمن يذبّحون أطفال المسلمين في عدد من المناطق وكان المسلمون يقابلونهم بالمثل في ذبح أطفال الأرمن. ولكن ما إن جُمع ألوف من أطفال الأرمن في المنطقة التي كانت تحت إمرة بديع الزمان حتى أمر الجنود: لا تتعرضوا لهؤلاء الأطفال بشئ. ثم أطلق سراحهم جميعاً دون أن يمس أحدهم بسوء. فعادوا إلى عوائلهم التي كانت خلف الخطوط الروسية. هذا السلوك كان درساً قيماً وعبرة للأرمن مما دفعهم إلى الإعجاب بأخلاق المسلمين[42]]

أ ــ اتباع الحنيفية السمحاء:

يرى الإمام أن الغلبة ستكون للإسلام كما تنبه إلى ذلك بسمارك الذي يعتبر من أشهر رجال الفكر في تاريخ أوروبا الحديث وأحد الذين حققوا الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر، فالحقيقة التي لا غبار عليها أن الحاكم على الدهر وعلى طبائع البشر إلى يوم القيامة هو حقيقة الإسلام، [فلو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام[43]]

أما عن الدعوة إلى الإسلام وأخلاقه فيرى الإمام أن تكون حسب نهج الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة [إذ أن الظهور على المدنيين من منظور الدين إنما هو بالإقناع وليس بالإكراه. وبإظهار الإسلام محبوباً وسامياً لديهم وذلك بالامتثال الجميل لأوامره وإظهار الأخلاق الفاضلة. أما الإكراه والعداء، فهما تجاه وحشية الهمجيين[44]]. ولقد أثبت التاريخ أن الذين تربوا في مدارس الإيمان هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل في أيديهم ميزان الحق والعدل. وانكشف بسبب وجودهم، ونقاء أخلاقهم:

أساليب الوضاعة، والخيانة، والغدر. ومن ثم يوجّه النورسي دعوة إلى علماء الاجتماع وعلماء الأخلاق ليروا الفرق الهائل بين أخلاقيات الشريعة المعتمدة على الإيمان وأخلاقيات المدنية الحديثة، مدنية أوروبا، فيقرر أنّ مبدأ الإيمان أساس ترتكز عليه كليات الأخلاق،

ب ــ خذ ما صفا.. دع ما كدر:

[ما ينبغي أن ننخدع، بل نجعل القاعدة الآتية دستور عمل لنا وهي: خذ ما صفا دع ما كدر وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب – مشكورين – كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات. أما العادات والأخلاق السيئة، فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيراً لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة[45]].

ج ــ إصلاح الفرد:

لما كان الإنسان هو مصدر الخير والشر جميعا؛ فإن الإمام يرى وجوب إصلاح أخلاق آحاد الناس قبل الحديث عن إصلاح المجتمع، [فالإنسان هو منبع الشرور الأخلاقية، وبالتالي وجب عليه إصلاح أنانيته التي هي مصدر لمصائب ومعاصي كثيرة، أشنعها وأكثرها سوءً المصيبة الدينية، والتي تتمثل في الكفر سبب كل الشرور[46]] والسبيل الوحيد إلى تجدد نفس الإنسان أن يشدّ نفسه دائماً إلى وصايا القرآن وأوامره وعظاته. وعندئذ يظل المجتمع الإنساني صاعداً في طريقين من التقدم: طريق التقدم في المعارف والعلوم وأسباب المنعة والقوة، وطريق التقدم على سلّم الأخلاق او القيم الإنسانية الرفيعة، التي لا تعرف التفاتاً إلى الوراء، ولا تتجه إلا صعداً نحو الجدّة وفتوّة المجتمع الإنساني.

وأخطر ما في الإنسان من مساوئ "الأنانية" وقد فطن الإمام إلى ذلك فقال [لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظرا تاريخيا وتأملت في مساوي جمعية البشر لرأيت أس أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط: إحداهما: (إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع) والثانية: (اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا) والدواء لهاتين الخصلتين الفاسدتين هو الزكاة وحرمة الربا[47]].

د ــ إصلاح الحكم:

لقد جاء في الأثر أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ومن ثم رأى الإمام أن إصلاح السلاطين من ركائز إصلاح الأخلاق في المجتمع، حيث أن نسبة الأخلاق والعبادة وأمور الآخرة والفضيلة في الشريعة هي تسع وتسعون بالمائة بينما نسبة السياسة لا تتجاوز الواحدة بالمائة. ورغم ذلك فإن السياسة الفاسدة قد تضّيع الشريعة كلها، [فالسياسة المبنية على المنافع وحش رهيب[48]] أما السياسة في الإسلام مرتبطة بالعقيدة، وبالأخلاق وبالقيم التي تنادى بها هذه العقيدة، ويلفت الإمام نظر الساسة إلى المعنى الصحيح للحرية فيقول:[يا أبناء الوطن! لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من أيديكم، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق، الفاسد؛ في إناء آخر! ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها، والتخلق بالأخلاق الفاضلة[49]] [إن صدى الحرية والعدالة ينفخ نفخ اسرافيل فيبعث الحياة في مشاعرنا المدنية وآمالنا الخامدة ورغباتنا القومية الرفيعة وأخلاقنا الإسلامية الحميدة، حتى يرن صماخ الكرة الأرضية المجذوبة جذبة المولوي، ويهيج الأمة جميعاً ويهزها هزّ المجذوب[50]]

*** مصادر الدراسة:**

1 ــ ابن حجر "أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي" (773 ــ 852) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379. (22/1)

2 ــ إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان النورسي.. نظرة عامة عن حياته وآثاره، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999.

3 ــ أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1990م.

4 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، بغداد، دار الانبار، ط1، 1989.

5 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الأحمدية للنشر، البيضاء 2001.

6 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، السيرة ذاتية، إعداد ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1998 هـــ.

7 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1994 .

8 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1992 م.

9 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1993 م.
10 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1992 م.
11 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر، استانبول.
12 ــ بديع الزمان سعيد النورسي، مرشد أهل القرآن، ترجمة إحسان قاسم، سوزلر للنشر، 1998.
13 ــ خليل زياد الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، ط1، دار النيل، أزمير، 1998
14 ــ سعيد محمد القرني، المنهج التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1998
15 ــ محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، سوزلر للنشر، القاهرة، 1995.
16 ــ محمد التهامي، النورسي أنوار لا تغيب، الطبعة الأولى، القاهرة، 1998 م.
17 ــ محمد زاهد الملازكردي، عجالة مقتطفة من أقلام أفاضل العلماء والدكاترة في حياة الإمام الجليل بديع الزمان سعيد النورسي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.
18 ــ هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية:. ترجمة: نصير مروة وحسن قبيسي. بيروت 1966م
19 ــ ويل ديورانت، قصة الفلسفة من أفلاطون (428 ــ 347 ق.م) إلى جون ديوي (1859 ــ 1952م)، ترجمة: د. فتح الله محمد المشعشع، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، 1972.

الهوامش

1 رواه أحمد عن أبي الدرداء، مرفوعا. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 5390.
2 ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ص 144.
3 المرجع السابق، ص 215.
4 هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص 99.
5 طرف من حديث طويل أخرجه البخاري من حديث عائشة في كتاب بدء الوحي، انظر: ابن حجر، الفتح، (22/1)
6 بديع الزمان سعيد النورسي "السيرة الذاتية"، ص 102
7 بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، "محاكمات – ص: 140"
8 بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، ص : 606-607.
9 صيقل الإسلام، مرجع سابق، السانحات، ص : 333.
10 بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 97.
11 صيقل الإسلام، مرجع سابق، 506
12 بديع الزمان سعيد النورسي، الخطبة الشامية، ص : 46.

13 المصدر السابق، ص : 50.
14 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: 143
15 الخطبة الشامية، ص : 46-48
16 المرجع السابق، ص : 85.
17 إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص 285.
18 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: 143
19 نفس المرجع، ص: 142
20 رواه الحاكم عن أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 2349
21 الخطبة الشامية، ص : 38.
22 بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ص: 370.
23 السيرة الذاتية، ص 140.
24 نفس المرجع، 98.
25 نفس المرجع، 70.
26 صيقل الإسلام/محاكمات – ص: 117
27 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 100
28 الكلمات، مرجع سابق، ص: 855.
29 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 217.
30 الكلمات، مرجع سابق، ص 508، 512.
31 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 217.
32 الكلمات، مرجع سابق، ص: 370.
33 المكتوبات، مرجع سابق، ص 215
34 إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص: 97
35 بديع الزمان سعيد النورسي، اللمعات، ص 315
36 نفس المصدر، ص 316.
37 بديع الزمان سعيد النورسي، مرشد أهل القرآن، ص 166.
38 الكلمات، مرجع سابق، ص: 856.
39 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: 496
40 بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ص 574
41 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 515
42 نفس المرجع، ص 106
43 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: 494.
44 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 98.
45 نفس المرجع، ص 86
46 المكتوبات، مرجع سابق ص، 107
47 إشارات الإعجاز، مرجع سابق ص : 67-68.
48 الخطبة الشامية، مرجع سابق ص : 103
49 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص 467

50 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 82